اولية تدوين المعاجم

وتاريخ كتاب العين المروي

عن الخليل بن احمد

(الخاتمة)

٤ — صورة اتمام الكتاب بعد تأسيس بنائه : —

رأينا مع دليل من التاريخ واضح ان الخليل هو الذي رتب ابواب كتاب العين ووضع نهجه وصور بناءه ، ولم نر احداً من اهل العلم ينفي عمله هذا بدليل الا ان يكون نتفاً من ترتيب الحروف على مخارجها ، ذهب على بعضهم حاجة الخليل الى جعلها مخالفة لما روى عنه بعض تلامذته ، وذلك قياماً عند ضرورة التأليف الواضح والنهج المستقيم . وتنتهي معرفتنا باليقين للكتاب الى هذا الحد الذي رسمناه ، ويتسرب الشك في نفسنا بعد ذلك حيث لا نرى نصوصاً تاريخية قويمة تذكر بالدليل الثابت أثراً للخليل في الكتاب ابعد مما ذكرنا .

ولكن للريب الذي ينبعث حداً ، فلئن فقدنا أقوال التاريخ الثابتة فلن نعدم دليل العقل والمنطق ، ولن يعوزنا الا عرضه على ما نعرف لنستدل على صحته . ولنقرر قبل أي شيء آخر مبادئ لا نخطئها : أولها ان علم الخليل في اللغة والصرف من الثقة بحيث لا يتسرب اليه الاضطراب ، فما يعرض من خلل لغوي أو صرفي في الكتاب فالخليل براء منه الا ما ندر . ومبدؤنا الثاني ان الليث ، على ما عرف عنه من تق وورع ، صادق فيما ينسب الى صاحبه الا اذا أخل بالمبدأ الأول ، حتى اذا لم يخل به أصبح كلامه حجة . فاذا قررنا هذين النظرين قسنا عليهما ؛ فنظرنا في الخطأ الذي ورد في كتاب العين ، مما ذكره العلماء ، وحاولنا ان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نعتبر صدق الليث به ، فما هي دعواه ، وهل نستطيع ان نوفق بينها وبين الاضطراب الواقع في الكتاب ؟

ينسب الليث الكتاب الى أبي عبد الرحمن الخليل بن احمد ، ويريد بذلك انه مبدعه وواضع نهجه وشيئاً آخر نراه فيما يلي ، ولا يقصد بذلك ان الخليل الف الكتاب برمته . ودليلنا على ذلك ان الليث نفسه يقول : كان الخليل « يملي علي ما يحفظ ، وما شك فيه ، يقول لي : سل عنه ، فاذا صح فأثبته الى ان عملت الكتاب » [1] . وقوله هذا يثبت ان الخليل لم يضع الكتاب كاملاً ، وان الذي أتمه ووضعه على صيغته النهائية هو الليث نفسه ، كما يوضح ذلك قوله : « الى ان عملت الكتاب » . وما أتمه الا معتمداً على أقوال العلماء الذين استفاد من علمهم ، ولم ينكر استفادته فنسب اليهم أقوالهم وآراءهم ، وذكر اسمهم في الكتاب ، وجلهم من الأعراب الذين حلوا خراسان كرائدة [2] وابي ليلى وعرام والضرير [3] ، ومنهم العراقيون كسيبويه [4] والاصمعي وابن الاعرابي وابي عبيد [5] . ولا يدخل في هذا الشأن اسماء وروايات متأخرة في الزمن عن هؤلاء ، ولعلها كانت تعليقات على الكتاب ثم أضافها الوراقون الى أصله ، فقد ظهر على ما يقول ثعلب « اختلاف في نسخه واضطراب في رواياته ، ووقع فيه الحكايات عن المتأخرين والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين » [6] . وكل ذلك مما لا تقع تبعته على الخليل او الليث ، وليس لنا كما فعل الزبيدي [7] ، ان نتخذ من ذلك حجة على ان الكتاب ليس

(١) في كتاب العين رواية ابن درستويه (الفهرست ٦٣ ، إرشاد الأريب ٦ : ٢٢٧ .)

(٢) في مادة عدق من كتاب العين ص ٦٧ وفي مادة عجر ، عن دروس الأستاذ مارسيه نقل الأستاذ الكناني . (٣) عن دروس الأستاذ مارسيه نقل الأستاذ المبارك .

(٤) في مادة جدع من كتاب العين ص ٦٢ . ويرى الأستاذ مارسيه أن الكتاب عرض عليهم فكانوا يبدون رأيهم في مواده . (٥) المزهر ١ : ٦٢ .

(٦) في المزهر ١ : ٦٢ نقلاً عن الزبيدي في استدراكه يقول ابن فارس في المقاييس (نسخة المجمع ص ٥٥٠) بعد أن ذكر بيت شعر سخيف من كتاب العين : « وأرى كتاب الخليل إنما تطامن عند أهل العلم لمثل هذه الحكايات » . (٧) النص السابق من المزهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للخليل، وكل ما علينا ان لا نثق بهذه الروايات ثقتنا بها كما لو كانت من اصل الكتاب.

على أن الأمر لا يقتصر على ذلك بل الكتاب يتضمن أخطاء يجل مقام الخليل عن نسبتها اليه، وتلك هي كما يعددها الزبيدي ويحتج بها على ان الكتاب ليس للخليل: «ادخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف، وهو مذهب الكوفيين خاصة، وعلى ذلك استمر الكتاب من أوله الى آخره ... ولو ان الكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائي الخفيف من الصحيح والمعتل والثلاثي المعتل بعلتين، ولما جعل ذلك كله في باب سماه اللفيف، فأدخل بعضه في بعض، وخلط فيه خلطاً، لا ينفصل منه شيء عما هو بخلافه، ولوضع الثلاثي المعتل على أقسامه الثلاثة ليستبين: مثل الياء من معتل الواو والهمزة، ولما خلط الرباعي والخماسي من أولها الى آخرهما.»[1] انها لأخطاء فادحة كما ترى ومعظمها يرجع الى أصل بناء الكتاب لأنها ابواب مفردة منه، وقد رأينا ان لا شك في ان الخليل هو الذي وضع نهج الكتاب وابوابه، فكيف نعللها؟ لا تعليل لها الا فرضها ملحقة بالكتاب بعد وفاة الخليل مع البرهان على أن موضعها لُحظ في وضع الكتاب الأصلي وغُرِّب عن بال الليث فألحقها خطأ. والحق ان هذا الفرض صحيح والبرهان ممكن. ألم تر ان الخليل لا يعتد بالمضاعف من الابنية فلا يُدخل فيما أحصاه من كلام العرب الالفاظ التي يتكرر حرف من حروفها[2]، وكذلك فالثنائي الخفيف من الصحيح يدخل عنده في أبنية الثنائي وكذلك المعتل منه والثلاثي المعتل بعلتين. الا ان الخليل ادرك ذلك حين تعداده الابنية ورسمها، ولكن الليث ظن انه لم يلحظها فجمعها في باب خاص اسماه اللفيف، كما ان الليث اخطأ «من جهة التصريف، فذكر حرفاً مزيداً في مادة أصلية او مادة ثلاثية في مادة رباعية»، وهذا مما عيره به الزبيدي وعدده في جملة أخطاء الكتاب فتتبعه السيوطي[3] ولم يجد غيره مما يعير به الكتاب. وماذا يعني وجود هذه الاخطاء الا ان الخليل وضع

(١) المزهر ١: ٦٣ وكشف الظنون مختصراً ٢: ٢٩٠ (٢) المزهر ١: ٣٧ وبغية الوعاة ٢٠٣ وانظر في هذه المقالة ٨٢٦ من من مجلة المجمع العلمي المجلد ١٠ المجلد ١٦ (٣) المزهر ١: ٦٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابنية العرب وميز المهمل من المستعمل منها دون ان يأتي على ذكر مشتقاتها ، ولو فعل ذلك لما تسرب الخطل الى الكتاب .

وبعدُ فهل يدعي الليث خلاف ذلك ؟ انه ان فعل فقد ثقفنا . ولكنه لم يفعل بل هو يؤيد قولنا حين يستفسر من الخليل عن علة عده بناءً ما مهملاً وحين يسأله عن معنى المشتقات فيقول في الحالة الاولى وقوله في كتاب العين : « من أين قلت عكش مهمل »[1] . ويقول في الثانية في الكتاب نفسه : « قلت للخليل اذ لقيته : ماذا تقول في المخلع ، قال المخلع ضرب من البسيط وأورده »[2] . ان كل ذلك إلا يدل دلالة بينة على ان الخليل لم يأخذ على نفسه تجشية ابواب الكتاب بل ترك ذلك الليث ، على ان يستشيره ويهتدي بهديه .

وهذه النتيجة التي يفضي اليها البحث تجد مصداقًا لها في الألفاظ التي وُجدت مصحفة في كتاب العين ، فذكرها الزبيدي ونقلها عنه السيوطي[3] . وليس بينها ما يشك في انه مصحف في أصل بنائه الا لفظين : اللخج والترم ، قال الزبيدي ان لا وجود لها . ولكن الفيروزبادي خالفه في ذلك فذكر اللخج وقال هو « أسوأ الغمص »[4] وذكر الترم وقال « هي وجع الخوران »[5] وكذلك فلا يمكن تأييد قول الزبيدي فيهما دون جدال . والذي يبقى أن التصحيف يقع في الكلمات المشتقة او عرضًا في وضع معنى مشتق لبناء من الابنية مصحف . وهذا تأييد لما قلنا ، من أن الخليل لم يضع بنفسه اشتقاق الكلمات ولا معانيها ، بل عهد بذلك الى الليث .

وهكذا يبدو واضحًا ان الليث لم ينسب الى الخليل غير ماقال فكان صادقًا في دعواه ، وحق لنا أن نثق به . اما ان يكون اخطأ فيما عهد به اليه الخليل ، فذلك يرجع الى انه لم يكن في معرفة اللغة بمكان وثيق . ثم إن الاخطاء التي وقع فيها بسيطة ، لا كبير شأن لها . اسمع ما يقوله السيوطي بعد ان تتبع الأغلاط من كتاب

(١) كتاب العين ص ١٥٣ عن دروس الأستاذ مارسيه في مذكرات الأستاذ المبارك .

(٢) كتاب العين مادة خلع عن دروس الأستاذ مارسيه . (٣) المزهر ٢:١٩٣ ١٩٦ . وانظر مايقوله ثعلب في تصحيف كتاب العين (ارشاد ، طبعة فريد الرفاعي ١٢ : ٤٤)

(٤) القاموس ، وانظر تاج العروس ٢: ٩٤ (٥) القاموس وانظر تاج العروس ٨: ٢١١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العين التي نوه بها الزبيدي في استدراكه عليه قال : « وقد طالعت استدراك الزبيدي الى آخره فرأيت وجه التخطئة فيما خطئ فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق . وبعضه ادعي فيه التصحيف ، واما انه يخطأ في لفظة من حيث اللغة ، بأن يقال هذه اللفظة كذب ، او لا تعرف ، فمعاذ الله لم يقع ذلك . »[1]

وهنا يجول في الذهن سؤال كبير الشأن ، عظيم النتيجة ، وهو : كيف صح لليث ان لا يخطئ في سرد معاني الكلمات مع انه اخطأ فيما هو دون ذلك بكثير : اخطأ في التصريف وصحف في الألفاظ ؟ والجواب عن ذلك لا يخرج عن شيء واحد ، وهو انه ليس الذي وضع معاني الالفاظ وتحراها ، ولو فعل ذلك لامتلأ الكتاب خطأ ، فهو كما يدعي ذلك في نسبته الكتاب الى الخليل اخذها منه . ولكن كيف يأخذ عن الخليل معاني الكلمات (مما يشعر بأن الكتاب قد تم) ثم يغير في أبواب الكتاب ويخطئ في توزيع الكلمات في ابواب الكتاب وكيف يأخذ عن الخليل معاني الكلمات ثم يصحفها ؟ لا جواب عن ذلك الا انه خلا ما املى عليه الخليل او سأله عنه ، اخذ منه ما كان أجمعه ودوّنه في صحفه من معاني الالفاظ . ويشهد سيبويه بكثرة تدوين الخليل للغة حين سأله ابو بكر بن السري قائلاً : « هل رأيت مع الخليل كتباً يملي عليك منها ، فقال : لم اجد معه كتباً الا عشرين رطلاً فيها بخط دقيق ما سمعه من لغات العرب ، وما سمعت من النحو فاملاء من قلبه . »[2] اما إن هذه الارطال العشرين ذات الخط الدقيق كافية لأن يدون منها كتاب اكبر من كتاب العين ، فهل يشعر الخليل بدنو أجله او يبعد يده عن كتاب العين فيبخل بها على الليث ولا يوصي بها اليه ، والكتاب كتابه والوضع وضعه ؟ الا ان المنطق يقضي بقبول هذه الفكرة ، لا سيما وهي تفسر كيف وقع التصحيف ، والتصحيف لا يكون إلا بالنقل من خط غير معجم لا بشيء آخر وهي تفسر كيف وقع الخطأ في اشتقاق الكلمات حين عمد الليث إلى توزيع

(١) المزهر ١ : ٤٣ . (٢) تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما كتب في صحائف الخليل على أبواب الكتاب ، وكيف أنه خيل إليه أن بناء الكتاب تنقصه الأبنية المضاعفة والمعتلة بعلتين فأضافها في آخر الكتاب بباب أسماه اللفيف .

الخلاصة . — وهاك الآن زبدة ما تظهره نتيجة البحث عن تاريخ كتاب العين : أقام الخليل زمناً يفكر بحصر أبنية اللغة العربية ، وأدى به حسن خاطره وصفاء قريحته إلى الرجوع إلى عناصر الكلمة العربية ألا وهي الحروف ، فاتخذها سبيلا إلى حصر ألفاظ اللغة العربية بضرب بعضها ببعض مرة للحصول على الثنائي وضرب ماخرج معه من الثنائي بالأحرف نفسها لاستخراج الثلاثي وابنية الثلاثي بحروف العربية للبلوغ إلى الرباعي وأبنيه الرباعي بها للوصول إلى الخماسي ، وذلك بعد ترتيب الحروف على مخارجها في النطق حصراً للمهمل من الألفاظ بأمكنة متقاربة ، وأغلب المهمل إنما يتركب من حروف متقاربة المخرج أو مما لم يدخل فيه حرف من الحروف المحسنة للنطق أي حروف الذلاقة . واضطره أسلوبه في الحصر المتقارب للمهمل أن يغير شيئاً من ترتيبه الأول لمخارج الحروف مما كان لقنه لسيبويه . وبعد أن انتهى من عمله هذا وضبط أبنية اللغة ضبطاً لايدخلها فيه خلل وجد أن أسلوبه في الحصر مكنه من ترتيب الأبنية على حروفها فأشار إلى ذلك في مقدمة كتابه فكان مبدع الترتيب على الحروف دون أن يعرف طريقة اليونان في ذلك وكان يطلع أحد تلامذته أو أصدقائه — الليث بن المظفر — على مراحل عمله فيجد منه اهتماماً شديداً ، ولعله شعر بعدم استطاعته إتمام الكتاب بنفسه فناوله إياه ، وصار يملي عليه شرح بعض فصوله ومنها مقدمة الكتاب على الأغلب ، ويطلب إليه أن يسأل عما تعسر عليه معرفته . ثم شعر بدنو أجله أو باضطراره إلى ترك الكتاب ، فأوصى أو قدم لتلميذه صحائفه في اللغة كان سمعها من الاعراب ونقلها عنهم ، وبعضها من ملاحظاته اللغوية خلال حياته . وكان قد اجتمع في هذه الصحف التي تزن عشرين رطلاً مفردات ومشتقات عديدة كان على الليث أن يوزعها في طيات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الكتاب حيث يقتضي مصدر اشتقاقها ، غير أن الليث لم يكن أماماً في اللغة ، لا بل لم يكن قديراً . وكان إلى ذلك قد قرأ التصريف والنحو على القاسم بن معن المسعودي [1] (— ١٧٥ او ١٨٨ والأول أصح) والقاسم هذا عالم من علماء الكوفة ، ولم يكن علم الكوفة بالتصريف والنحو عالي القدر عند غير الكوفيين ، فامتد أثره إلى كتاب العين وانضم إليه بعض الضعف في معرفة الليث . فظهر في الكتاب خطأ من حيث توزيع الاشتقاق على الأبنية وظهر تصحيف في ألفاظه التي لم يستطع الليث أن يضبط أعجامها من صحائف أستاذه . وزاد الأمر خطورة أن الليث عمل بنصيحة أستاذه فسأل كثيراً من الأعراب واللغويين عن اشتقاقات لم تنكشف له معانيها وأصولها ؛ ونسب أقوالهم وأجوبتهم إليهم ، فكان هذا مما أخذ على الكتاب وقد ذكر أن مؤلفه الخليل . على أن كل ذلك لم يستنفد المشتقات أجمع ، وبقي منها عدد لم يذكر ، ولم يرو الكتاب عن الليث إلا بعض أصحابه ، ووقع بين أيدي الوراقين فأضافوا إليه ماخيل إليهم أنه يزينه في أعين الناس . ورأى علماء العراق هذا الكتاب وشعروا بضعفه هذا فاستنكروه وأبوا أن يقروا له بجلالة قدره إلا قليلاً منهم . ولما نبذه بعض العلماء كثر المتهجمون عليه . واعتز بعضهم بزيادة ألفاظ مشتقة عليه بما يقرب من ضعف الكتاب ، وتجرأ بعضهم فاعترض على المادة التي وضعها الخليل بنفسه ، وهي تمييز المهمل من المستعمل [2] فكان من أمرهم شطط فانتصر فريق من العلماء للكتاب وخطأ بعضهم بعضاً ، وأثبت ذلك أن في الكتاب أشياء حكم وضعها فلا تنقض . وفيما كان العلماء يتجادلون فيه ، كانت مادته ونهج تأليفه ينتشران في المعاجم التي تبعته والتي نسجت على منواله دون فارق كبير : من مختصر له أو مغير لترتيب حروفه أو موسع لبعض فصوله . أما الكتاب نفسه فقد ظل منبوذاً محسوراً يساعد على انتشار اللغة العربية دون أن يظهر ، وإذا بالمعاجم تنمو ، وإذا باللغة العربية تضبط ضبطاً ما كان ليتهيأ لها لولا الخليل بن أحمد

(١) إرشاد الأريب ، طبعة فريد الرفاعي ١٧ : ٦ (٢) انظر ذلك في الفهرست ص ٦٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيما وضع وأبدع ، ولولا الليث بن المظفر فيما أقدم عليه بشجاعة وإخلاص ، فاللغة العربية مدينة لها ماشاء الله أن تعيش ، وستحيا طويلاً .

هذه قصة كتاب العين في ماضيه ، وهي قصة فيها سوء حظ عظيم ، ولكن أليس من الغرابة أن يتابع سوء البخت كتابنا حتى عصرنا هذا ، فلا يقيض الله له في شخص الأب انستاس ماري الكرملي ناشراً عالماً مدققاً يشرع في إخراجه بالطباعة ، حتى يرسل الحرب العامة سنة ١٩١٤ فتوقف طبعه عند جزء صغير منه ، على أن هذا الجزء نفسه يحمل مكر الدهر بأصله ، فلا ينتشر إلا بمقدار هزيل ، حتى لاتكاد ترى منه اليوم نسخة في دمشق .

ولا ندري أيكون مستقبله أبهى من ماضيه وحاضره فيعزم العلامة الكرملي على طبعه كاملاً ، توآزره في نفقاته وزارة المعارف العراقية ، التي لها أن تفاخر بأن واضعه ممن نشؤوا في العراق ورفعوا اسم البصرة عالياً ، أم يأتي الإهمال على النسخة او النسختين المخطوطتين الوحيدتين منه ، فتفقد اللغة العربية اول معجم واشرفه ، فيه ذكاء الخليل وعلمه وتتبعاته مما روى عنه تلميذ تقي لا يعرف الكذب . وما اجل علم الخليل في اللغة ، وما احسن ماينقل عنه فيها .

(انتهى البحث)

يوسف الممّس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net